

في تاريخية الجسد السياسي: من المعاناة الفردية إلى ذاكرة الأمة

The Historicity of the Political Body: From Individual Suffering to National Memory

Amal Al-Shamari

أمل الشمري

Independent Researcher

باحثة مستقلة

amal.al-Shamari@outlook.com

الملخص

تتناول هذه الورقة الجسد بوصفه أحد المفاتيح الأساسية لفهم تشكل السلطة والذاكرة عبر التاريخ، منطلقاً من مساءلة التصورات التي تختزله في بعده البيولوجي أو الوظيفي. يفترض البحث أن الجسد يحتفظ بأنماط من الخبرة التاريخية والاجتماعية لا تُختزل في النصوص أو السجلات، بل تتجسد في الممارسات اليومية وأشكال الانضباط والعنف والتطبيع. تعتمد هذه الورقة مقاربة فلسفية-تاريخية لتتبع تحولات النظر إلى الجسد ضمن سياقات معرفية وثقافية مختلفة، مع التركيز على علاقته بالضبط الاجتماعي، والذاكرة، والعنف، وإمكانات المقاومة. وتناقش كيف يصبح الجسد مجالاً تتقاطع فيه آليات السلطة مع الخبرة المعاشة، وكيف تُعاد عبره صياغة العلاقات الاجتماعية والرمزية. تسعى هذه الورقة إلى إبراز الجسد لا بوصفه موقعاً سلبياً للهيمنة فحسب، بل كحيز تتشكل فيه استجابات معقدة تتراوح بين الامتثال والمراوغة وإعادة المعنى. ومن خلال ذلك، كما تقترح قراءة للجسد بوصفه وسيطاً معرفياً يمكن من خلاله إعادة التفكير في التاريخ، والسلطة، والذات، بعيداً عن السرديات الخطية أو التفسيرات الاختزالية.

الكلمات المفتاحية: الجسد، السلطة، الذاكرة، العنف.

Abstract

This paper examines the body as one of the central keys to understanding the formation of power and memory throughout history, departing from approaches that reduce it to a purely biological or functional entity. It argues that the body retains forms of historical and social experience that cannot be fully captured through texts or official records, but are instead embodied in everyday practices, regimes of discipline, violence, and normalization. The paper adopts a philosophical-historical approach to trace transformations in the understanding of the body across different epistemic and cultural contexts, with particular attention to its relationship to social control, memory, violence, and the possibilities of resistance. It explores how the body becomes a site where mechanisms of power intersect with lived experience, and how social and symbolic relations are continuously reconfigured through it. Rather than treating the body solely as a passive site of domination, the paper highlights it as a space in which complex responses emerge, ranging from compliance and negotiation to re-signification. In doing so, it proposes reading the body as an epistemic mediator through which history, power, and subjectivity can be rethought beyond linear narratives or reductionist interpretations.

Keywords: The Political Body, Memory, Violence,

مقدمة

لا يُختزل الجسد في كونه معطى بيولوجيًا محايدًا، بل يُفهم بوصفه أحد أكثر الحقول كثافة في تشكّل السلطة والعنف والذاكرة. ففي هذا السياق، تتجلى العلاقة بين الجسد والسلطة بوصفها علاقة تأسيسية في إنتاج الذاكرة الفردية والجمعية، حيث يتحول الجسد من مجرد كيان فيزيائي إلى مخزن متجسد لتجارب السيطرة والخضوع عبر التاريخ. إنه يحمل آثار الممارسات السلطوية، ويحتفظ بذاكرة لا تستطيع أدوات التوثيق التقليدية التقاطها أو تمثيلها، ليغدو موقعًا تُمارس فيه السلطة وتُختبر، ومجالًا تتراكم فيه آثار العنف والخضوع حتى بعد غياب الفعل المباشر. ومن هذا المنطلق، يطرح السؤال المركزي نفسه: كيف تتحول الأجساد إلى ذاكرة حيّة للعنف، وما الآليات التي تُحوّل التجربة الجسدية إلى معرفة مستمرة تتجاوز حضور السلطة المباشر؟

تُعدّ فلسفة تاريخ الجسد أحد الحقول المعرفية المركزية لفهم التحولات الكبرى في مسار الإنسان، لما لها من تقاطعات عميقة مع الدين والفن والسياسة وبُنى الاجتماع. فالجسد لم يكن يومًا كيانًا ثابتًا، بل تشكّل تاريخيًا تبعًا للانتقالات الفكرية والرمزية التي أعادت تعريف علاقته بالسلطة، وبالطبيعة، وبالذات الإنسانية. ومن هذا المنطلق، يمكن النظر إلى تاريخ الجسد بوصفه سجلًا متحوّلًا لعلاقته بالأبعاد السياسية والاجتماعية والروحية والنفسية.

ويكشف تتبع هذا التاريخ أن التحولات الكبرى لا تحدث بمعزل عن إعادة صياغة موقع الجسد ومعناه. ففي السياقات الشرقية القديمة، ارتبط الجسد بالخضوع لقوة متعالية، فيما تمركزت السلطة في مراحل لاحقة في جسد المرأة بوصفه حاملًا للخصوبة والاستمرار. ومع تحوّل أنماط الإنتاج وخروج الرجل إلى العمل، أعيد توزيع السلطة لصالح الجسد الذكوري، الذي اكتسب وظيفة إنتاجية على حساب بعده الرمزي والروحي.

مع بروز الأديان، أعيد تشكيل موقع الجسد ضمن منظومة قيمية جديدة جعلته خاضعًا لخطاب الزهد وكبح الرغبات، بوصف ذلك شرطًا للتحرر الروحي. لم يعد الجسد يُنظر إليه كقيمة قائمة بذاتها، بل كمجال للريبة وموضع للضبط والتهديب، بل وأحيانًا كعبء يتطلب الخلاص المستمر. ويتقاطع هذا التصور مع مسارات في الفلسفة اليونانية التي تناولت الجسد ضمن ثنائيات مركبة، أبرزها الجسد والروح، والمادة والنفس، حيث انشغلت بأسئلة علاقته بالطبيعة

وبالإنسان ذاته. ومع تداخل الفلسفة اليونانية مع النزعات الشرقية، تصاعد الاهتمام بالأخلاق والتصوف، وبرزت اتجاهات منحت الأولوية للبعد الروحي على حساب الجسد، ما أسهم في تعميق الفجوة بين الجسد والروح.

في المقابل، أعادت الفلسفة الحديثة صياغة سؤال الجسد ضمن أفق أكثر واقعية، إذ لم يعد موضوعاً للتأمل الميتافيزيقي فحسب، بل صار مجالاً للفهم والتحليل. ومع ديكرت، جرى الفصل الحاسم بين الجسد والروح، وأعيد تعريف الجسد كحقيقة مادية مستقلة، ما مهد للتعامل معه كظاهرة اجتماعية قابلة للفهم والتنظيم. ولاحقاً، مع الفكر التنويري، اتسع الاهتمام بالجسد ليشمل أبعاده الصحية والفيزيولوجية، وتحول من كيان مرتبط بالخلاص الروحي إلى موضوع للعناية والضبط والجمال.

ويُظهر هذا المسار أن الجسد ليس مجرد انعكاس للتاريخ، بل أحد أدواته الفاعلة، فهو الحقل الذي تُعبّر من خلاله الأزمات الفردية والجماعية، وغالباً ما يُحمّل بما لا يُقال صراحة في الخطابات السائدة. ورغم محاولات تجاوزه أو إخضاعه، يظل الجسد حاملاً للحقيقة التاريخية التي تربط الإنسان بمجتمعه ومكانه وذاكرته. ومن هنا، تتجلى العلاقة الجدلية بين الجسد والسلطة، حيث لا يملك أحدهما حضوراً دون أن يترك أثره العميق في الآخر.

1- الذاكرة الجسدية: من كونرتون إلى بورديو

يقدم كلٌّ من بول كونرتون وبيير بورديو تصورين متقاربين ظاهرياً ومختلفين منهجياً للذاكرة الجسدية، يلتقيان عند فكرة مركزية مفادها أن الجسد ليس مجرد وعاء بيولوجي، بل وسيط أساسي لتشكّل الذاكرة الاجتماعية وإعادة إنتاج السلطة. ينطلق كونرتون، في كتابه "كيف تتذكر المجتمعات" من نقد النزعة التي تحصر الذاكرة في العقل أو في الأرشيفات المكتوبة، ليؤكد أن المجتمعات تتذكر أيضاً -وربما أساساً- من خلال الجسد. فالجسد قادر على حمل الماضي واستعادته بطرق غير لغوية، عبر ما يسميه ذاكرة الأداء أو التعلم الجسدي، كما في مهارات كالسباحة أو المشي أو الطقوس، حيث قد يعجز الفرد عن استحضار لحظة التعلم الأولى، لكنه يحتفظ بالقدرة الجسدية ذاتها. من هنا، لا يُفهم الجسد عند

كونرتون بوصفه حاملاً مؤقتاً للذاكرة، بل كجزء من منظومة معلوماتية ممتدة، تتجاوز الكتابة الخطية إلى وسائط متعددة، تشمل الصورة، والصوت، والحركة، والطقس¹.

تتجلى أهمية هذا التصور عند النظر إلى الكيفية التي تُنقل بها القيم والمعرفة عبر التاريخ، إذ تصبح الوضعيات الجسدية نفسها حاملاً للثقافة. فالاختلافات في طرق الجلوس أو الوقوف بين الرجال والنساء، على سبيل المثال، لا تعكس فروقاً طبيعية بقدر ما تكشف عن معايير اجتماعية تُلقن منذ الطفولة وتُصحح باستمرار عبر خطاب تأديبي من قبيل: "اجلسي كفتاة" (Sit like a girl) أو "اجلس كرجل" (Sit like a man). تتحول الجسدانية هنا إلى سجل ضمني للقيم والمعايير، مدعوماً بلغة مشحونة دلاليًا مثل "اركع"، "انحن"، "ارفع رأسك"، حيث تُستخدم المفردات الجسدية لتحديد الصواب والخطأ، والطاعة والتمرد، والرفعة والانحطاط.

في هذا السياق، يبرز ضبط الجسد كأداة مركزية لتمير السلطة، إذ تُمارس الهيمنة وتُفهم من خلال الحركة والتموضع الجسدي: نفهم معنى السلطة عندما يجلس شخص بينما يقف الآخرون، أو عندما يركع فرد أمام آخر يظل واقفاً. ورغم اختلاف الدلالات بين الثقافات، تتفق المجتمعات على أن السلطة تُمارس وتُستوعب جسدياً، حتى أن اللغة اليومية تحتفظ بآثار هذه الذاكرة، كما في تعبيرات الارتفاع والسقوط أو كلمة Upright في الإنجليزية، لتغدو اللغة جزءاً من نظام رمزي متكامل للتعبير الجسدي عن السلطة والمكانة.

في المقابل، يذهب بورديو (Bourdieu) إلى مقارنة أكثر راديكالية للذاكرة الجسدية، إذ لا يتعامل معها بوصفها استحضاراً للماضي بقدر ما يراها ترسيخاً اجتماعياً لا واعياً يُعاد إنتاجه باستمرار عبر الممارسة اليومية، فالذاكرة الجسدية عنده تتجلى فيما يسميه الهابيتوس (Habitus)، أي منظومة الاستعدادات المتجسدة التي تُشكّل أنماط السلوك والإدراك دون حاجة إلى وعي أو تذکر صريح. تتكوّن هذه الذاكرة داخل الجماعات عبر التجارب المتكررة والمشاركة، وتظهر فقط ضمن شروط اجتماعية محددة، لتُعاد تفعيلها كلما تكررت السياقات نفسها، كما في العائلة أو الطقوس الجماعية أو الفعاليات الرياضية². بهذا المعنى، لا "يتذكر" الجسد الماضي عند بورديو، بل يُجسّد البنية الاجتماعية ذاتها ويعيد إنتاجها كحاضر دائم، يتجلى ذلك عبر الطقوس الجسدية، كالصلاة والاحتفال والرقص، والتي تلعب دوراً محورياً في ترسيخ

1 Paul Connerton, *How Societies Remember* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989), p. 72-76.

2 Pierre Bourdieu, *Outline of a Theory of Practice* (Cambridge: Cambridge University Press, 1972), p. 78.

الانتماء والهوية واستدامة الجماعات عبر الزمن، وبذلك، يتحول الجسد إلى أرشيف حي لا يعيد فقط تمثيل الماضي، بل يضمن استمرارية النظام الاجتماعي ذاته.

يُظهر هذا التداخل بين تصور كونرتون وبوردو اختلافًا جوهريًا في فهم علاقة الجسد بالماضي والسلطة. فبينما يرى كونرتون الجسد وسيطًا لاستحضار الذاكرة الجمعية عبر الطقوس والوضعيات المتكررة، يعتبره بوردو موقعًا لترسيخ الهيمنة الرمزية، حيث تُغرس البنى الاجتماعية في صميم التجربة الجسدية بوصفها ممارسة يومية مستمرة.

يمكن استيعاب التجربة الجسدية بوصفها ذات كثافة وامتداد تاريخي، كانت على الدوام مركزًا ومحطًا إسقاط لمجمل التحولات والانتقالات التاريخية الكبرى، ولعلاقة الإنسان بالكون وبالمجتمع. ومع تعقد هذه العلاقة، يغدو الجسد القناة الأساسية التي تعبر من خلالها الثقافة بحمولاتها الفكرية والرمزية. وفي هذا السياق، يسهل العثور على مصادر متعددة تربط الجسد بالتراث والثقافة، غير أن هذا الربط يتم غالبًا بطريقة انتقائية تخدم سرديات بعينها يُراد تمريرها إلى الأجيال اللاحقة. وتعمل هذه العملية الانتقائية على محو سجل بالغ الأهمية، يوثق مواطن الصراع والتسلط والقمع والمقاومة. والمفارقة اللافتة تكمن في الاعتقاد السائد بأن اندثار أجساد البشر في مرحلة تاريخية ما يعني محو ما تعرّضوا له من تجارب وآلام، في حين أن الجسد، وبطرق متعددة تسعى هذه الورقة إلى الكشف عنها، يظل حاملًا لأكثر الحقائق محاولة للإخفاء؛ حقائق تبدو جلية للعيان، لكنها في الوقت ذاته، وبفعل بدايتها، عصية على الفهم.

2- من تقنيات الانضباط إلى أخلاقيات الفضاءة: الجسد بين فوكو وكلوديا كارد

تنبه فوكو (Foucault) في مشروعه حول السلطة/ المعرفة إلى أن الجسد يشكل واجهة أساسية لفهم التحولات الاجتماعية، ومرآة تنعكس عليها أنماط العلاقات بين الأفراد ورؤيتهم للعالم¹. فالجسد، بحسب فوكو، خاضع تاريخيًا لقوانين السلطة، لكنه في الوقت ذاته يصبح الأداة التي تمارس من خلالها هذه السلطة. إنه حامل لممارسات ثقافية واجتماعية تهدف إلى تحقيق غايات سياسية واقتصادية محددة. تنطلق السلطة، في تصور فوكو، من الخطاب، وتتموضع

1 Michel Foucault, *Power/Knowledge* (New York: Pantheon Books, 1980), p. 98-102.

داخل المؤسسات عبر الفعل الجسدي. ففي كل خطاب سلطة جسدي يُقيّد ويُراقب ويُعاد تشكيله¹. الجسد هنا مجال إنتاج النظام والانضباط، وتُكتب عليه نصوص السلطة بوصفه صحيفة تاريخية حية.

يرفض فوكو الاعتقاد بأن الجسد تحكمه الفيزيولوجيا وحدها، مؤكداً خضوعه لشبكة معقدة من الأنظمة التي تشكّله وتضبط إيقاعه، من العمل والاستراحة إلى القيم الغذائية والأخلاقية. وقد اعتمد فوكو منهجين أساسيين في تحليله: الأركيولوجيا، التي تدرس نظم الخطاب، والجينالوجيا المستعارة من نيتشه، التي تتبع تشكّل الأجساد تاريخياً². فالجسد، في هذا السياق، هو ساحة تسجيل الحوادث، والمكان الذي تتفكك فيه وهمية وحدة الذات، إذ ينقشه التاريخ ويعيد تشكيله باستمرار، ومع تطور الحداثة، انتقلت السلطة من القمع المباشر إلى إدارة الحياة ذاتها، مما أسهم في إنتاج الجسد المنضبط والمنتج، الخاضع لمنطق الرأسمالية الحديثة. يلتقي هذا الطرح مع تحليل كونرتون لتأكل ذاكرة الحداثة، حيث يُفصل الجسد مكانياً، ويُختزل في وظائف إنتاجية، ويُهمك عبر أنظمة عمل صارمة، ما يؤدي إلى نسيان أبعاده الإبداعية والثقافية.

يبين ميشيل فوكو أن السلطة الحديثة تمارس سيطرتها على الجسد عبر منظومة الانضباط، وهي سلطة لا تعمل من خلال العنف الظاهر، بل عبر تنظيم الأجساد في المكان والزمان، وتوزيعها داخل مؤسسات تجعلها مرئية وقابلة للفحص الدائم. في قلب هذا النظام تقوم المراقبة الهرمية، حيث يُدرج الجسد داخل شبكة من الرؤى غير المتكافئة، كما في المدرسة، والثكنة، والمستشفى، والسجن، حيث يكون الفرد دائماً تحت احتمال النظر دون أن يعرف متى يُراقب فعلاً³. هذا الاحتمال الدائم للرؤية يكفي، عند فوكو، لإنتاج الانضباط، إذ يدفع الجسد إلى تنظيم حركاته، جلوسه، صمته، وتوقيته بنفسه. وتترافق المراقبة مع آليات التسجيل والتوثيق، فلا تُترك الأجساد في عفويتها، بل تُحوّل إلى ملفات، وسجلات، وتقارير، وجداول حضور، ونتائج، وتقييمات، بحيث يصبح الفرد "حالة" يمكن تتبعها عبر الزمن ومقارنتها بغيرها. في هذا السياق، لا تُسجّل الأفعال فقط، بل تُصنّف الأجساد ذاتها وفق معايير الطبيعى والمنحرف، السوي وغير السوي، المنتج وغير المنتج. وفي لحظة الفحص، التي تشكّل نقطة التقاء بين السلطة والمعرفة، يُعرض الجسد أمام نظرة تمتلك حق المراقبة والحكم معاً، كما في الامتحان المدرسي، أو الفحص الطبي، أو الكشف العسكري، حيث لا يُقاس

1 Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Translated by Alan Sheridan. (New York: Vintage Books, 1995). p. 135-140.

2 Michel Foucault, *The Archaeology of Knowledge*, trans. A. M. Sheridan Smith (New York: Pantheon Books, 1972). P. 51.

3 Michel Foucault, *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*, Ibid, p. 26.

الجسد بوصفه مادة بيولوجية فقط، بل بوصفه حاملاً للسلوك والانضباط والطاعة¹. أما الاختبار، فيمثل الشكل الأكثر كثافة لهذه الآليات، لأنه لا يكتفي بالكشف عن الجسد، بل ينتج معرفة عنه ويعيد تشكيله في آن واحد، فيُدرَّب الجسد على الامتثال، ويُعاد ضبط إيقاعه وحركاته واستجاباته، بحيث تصبح قواعد السلطة جزءاً من بنيته الداخلية. هكذا، لا تعمل السلطة عند فوكو على قمع الجسد أو إلغائه، بل على إنتاج ما يسميه "أجساداً مطيعة"، أجساداً خاضعة، نافعة، وقابلة للإدارة، تستبطن آليات الضبط وتمارسها على ذاتها، فتغدو السلطة فاعلة من الداخل بقدر ما هي مفروضة من الخارج².

وحين ينشغل فوكو بتحليل الكيفية التي تُنتج بها السلطة الأجساد -بوصفها أجساداً منضبطة، مطيعة، ومنتجة -تتجه كلوديا كارد (Claudia Card) إلى اللحظة التي تنقلب فيها هذه الإنتاجية إلى فظاعة؛ أي حين لا تعود السلطة معنية بتنظيم الحياة، بل بجعلها غير محتملة. فإذا كان فوكو يشتغل على تفكيك آليات السلطة وتقنياتها، فإن كارد تحاكم نتائجها القصوى أخلاقياً من خلال ما تُخلفه في الجسد. في كتابها "نموذج الفظائع: نظرية في الشر"، تذهب كارد إلى أن الجسد ينطق بما تعجز السرديات السياسية والقانونية عن الإفصاح عنه من شرور الفعل السلطوي. يظهر ذلك عبر الصدمة النفسية، والخوف المزمّن، والإعاقة، والتدمير المتواصل للحياة اليومية³. ومن هنا، تركز كارد على الجسد بوصفه موقعاً وحبلى يتجسد فيها الشر، رافضةً فهمه كنية داخلية أو نزعة نفسية فردية، لتعيد تعريفه كمفهوم يمكن قياسه مباشرة من خلال أثره الجسدي: في التجويع، والاعتصاب، والإبادة، والسجن القهري.

ولا يقتصر الشر في تصورها، على العنف المباشر أو الإيذاء الفيزيائي الصريح، بل يتجلى أيضاً في تحطيم شروط الحياة الكريمة ذاتها. فحتى في غياب التعذيب المباشر، تُفوّض إمكانية الفاعلية الجسدية عبر سلب القدرة على الحركة والتنقل، وقمع التعبير عن الرغبات، وانعدام الأمان. هكذا يُجرّد الجسد من حقه في أن يكون ذاتاً فاعلة⁴. وبذلك، لا ينتهي أثر الفعل السلطوي بانتهاء ممارسته، بل يستمر متجسداً في الجسد بوصفه حياة منقوصة، تحمل آثار الفظاعة زمناً طويلاً بعد انقضائها.

1 Michel Foucault, *The Archaeology of Knowledge*, trans. A. M. Sheridan Smith, *Ibid.* p. 52.

2 Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Translated by Alan Sheridan, *Ibid.* p. 44.

3 Claudia Card, *The Atrocity Paradigm: A Theory of Evil* (Oxford: Oxford University Press, 1996), p. 3-9.

4 Claudia Card, *Ibid.* p.10.

وعندما ننظر تحديداً في سياقات الحرب والاحتلال، تبلغ هذه الذاكرة أقصى درجات كثافتها، حيث يتحول الجسد إلى سجلٍ مفتوح للموت المنظم، تُكتب عليه قرارات السيادة المتعلقة بمن يُسمح له بالحياة ومن يُحكم عليه بالفناء. هنا لا يعمل العنف السياسي على تدمير الجسد فقط، بل على إنتاج ذاكرة خوف متجددة فيه، تُعاد تفعيلها عبر الألم، والمراقبة، والتكنولوجيا الحربية التي ترصد الجسد وتكثف مطاردته. وفي السياق الكولونيالي، تُشرعن هذه الذاكرة عبر نظام بيولوجي عالمي يُحوّل العلامات الجسدية إلى مؤشرات "علمية" تُبرر الوصاية، وتعيد تصنيف الأجساد وفق منطق التفوق والتخلف، ليغدو الجسد وثيقة إثبات دائمة على موقعه داخل تراتبية السلطة.

بهذا المعنى، لا يكون احتياج السلطة للجسد نابغاً فقط من رغبتها في إخضاعه وطمسه وإنهاء وجوده، بل من حاجتها إلى تخزين العنف داخله، وتحويله إلى ذاكرة عاملة تُعيد إنتاج الطاعة بشكل ذاتي. فالجسد، بما يحمله من آثار، لا ينسى ما تعرّض إليه، حتى حين يصمت الخطاب أو يغيب الفعل المباشر. إنه الذاكرة التي لا يمكن للسلطة محوها، ولا يمكنها في الوقت ذاته الاستغناء عنها، لأنها من خلالها تؤكد حضورها واستمرارها.

3- الجسد كموقع للمراوغة: ممارسات يومية داخل بنية السلطة

في ظل تجلّي السلطة عبر الجسد ومن خلال الممارسات اليومية، وانطلاقاً من فكرة أن السلطة بتعدد أشكالها وأنواعها، تُفهم وتُدرك جسدياً على نحو لا نظير له، يظل هذا الكشف قائماً ما دام الجسد قائماً. فحتى في أكثر اللحظات حدائث، ومن موقعنا المعاصر، يبقى الجسد هو الدليل والأثر الأضعب محوًا لتجليات السلطة. إنه الأرشيف الذي لا يمكن التخلص منه، مهما بلغ تطور أنماط الحكم والتنظيم.

وفي هذا السياق، ينظر ميشيل دي سرتو (Michèle de Certeau) إلى الجسد بوصفه كياناً يعيش داخل نظام الدولة الحديثة، وأنماطها العمرانية والمؤسسية -كالسوق، والتخطيط الحضري، وتنظيم الفضاء- حيث تُفرض باستمرار أشكال السيطرة وتُحدّد سبل العيش. فالجسد، في هذا الإطار، لا يتحرك بعفوية خالصة، بل يوجد داخل شبكة كثيفة من الضبط. غير أن دي سرتو لا يتوقف عند هذا الحد، بل يلفت إلى أن الجسد يقاوم هذا الفعل السلطوي عبر تحركاته المحدودة واليومية داخل المدينة، من خلال ما يسميه "التكتيكات" (tactics) تشير هذه التكتيكات إلى عمليات التحايل الدقيقة التي يمارسها الأفراد داخل النظام القائم، لا بهدف إسقاطه، بل لإعادة استخدامه، وإعادة ترميزه، ومنحه معاني مغايرة لما خُصص له سلطوياً. فالأفعال العادية في الحياة اليومية-كالمشي في المدينة، واستخدام اللغة،

والتحدث، والشراء والاستهلاك، والطهو، والسكن- ليست ممارسات محايدة، بل محاولات مستمرة لاستعادة المعنى داخل عالم مفروض سلفاً¹.

وعليه، يلاحظ دي سرتو أن السلطة الحديثة لا تعمل عبر القسر المباشر، بل تتجلى بوصفها سلطة ناعمة، يُعاد إنتاجها- أو بالأحرى يُعاد تثبيت أثرها الخفي- من خلال الاستخدام اليومي للجسد، والحركة، والتموضع داخل الجغرافيا. ورغم أن هذه الأدوات غير مُعلنة، إلا أنها شديدة الفعالية في فرض السيطرة. يعيش الجسد داخلها في حالة مقاومة صامتة، لا تصطدم بالسلطة وجهاً لوجه، بل تناورها من الداخل.

4- الجسد ما بين التحضر والعنف الثوري

عندما نتناول الجسد في موقعه الراهن داخل التاريخ، يصعب فصله عن إحدى أعظم التحولات التي شهدتها الإنسان، وهي عملية التحضر؛ تلك العملية التي تُقدّم اليوم بوصفها أسمى الحركات التقدمية في مسار الإنسانية، والتي يُزعم أنها نقلت الإنسان من كائن بدائي إلى كائن يُجسّد رقيّه وتقدّمه عبر جسده ذاته. على الرغم من أن عملية التحضر بحد ذاتها، كما يشير نوربرت إلياس (Norbert Elias) في كتابه *The Civilizing Process* "عملية التحضر"، جاءت بنبوءة تقويض النزعات البوهيمية البدائية لدى الإنسان مثل السيطرة على العنف، وكبت جماح الغضب، وتبادل الآراء والاعتراض بطريقة حضارية، وإظهار المجاملة، والتعبيرات اللطيفة، وأداب المائدة، إلا أنها أيضاً ظاهرة تحول الجسد وسلوكياته مساحة للضبط وموضوعاً للتحضر². وعليه، يأتي فرانز فانون بكتابه "معدبو الأرض" وهي مرحلة تاريخية مهمة في الفكر النقدي لما بعد الاستعمار، ليقدم نقداً وتصوراً يمكن اعتباره ضمنياً مستهزئاً بكل الأشكال التحضرية الوهمية. فالفرد لا يمكن أن يكون متحضراً وناعماً في مواجهة السلطة، التي تتفاعل معه بطبقات من العنف³. هنا يتحدث فانون عن الجسد باعتباره موقع العنف والاستهداف، وبالتالي قُدر عليه التحول إلى الساحة الوحيدة للمقاومة والتحرر.

ويجادل فانون بأن العنف الثوري غالباً ما يتم عمداً وضمه بأنه عجز غير متحضر، وأن الثورة والمطالب الشعبية ينبغي أن تكون فكرية وسلمية، في حين أن الاستعمار والعنف السياسي يكبل بمكيالين ويطالب بما لا يقدمه.

1 Michel de Certeau, *The Practice of Everyday Life*, trans. Steven F. Rendall (Berkeley: University of California Press, 2011), p. 29-34.

2 Norbert Elias, *The Civilizing Process* (Oxford: Blackwell, 1994), p. 365-375.

3 فرانز فانون، معدبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2015)، 45-48.

وبما أن الجسد هو الأرضية الوجودية لتجلي السلطة والقمع، يرفض فانون إخراج وإخراج مقاومته الثورية الجسدية من عملية التحرر، كونه رمزاً للهوية والتحرر¹. العنف في سياق الثورة ضد الاستعمار له دور نفسي وسياسي، ويحلل فانون أن مقاومة الاستعمار بالعنف تمنح المستعمرين حرية نفسية وتكسر هيمنة القوى الأجنبية، دون تشجيع العنف كقيمة مطلقة.

وبناءً على ذلك، لا يمكن إلا التساؤل عن مسألة التحضر الجسدي عامة: هل هي حقيقة تطور حضاري عضوي، أم أداة ناعمة للإخضاع والمسائلة، تُستخدم لتبرير العنف بشكل أكبر لمن لا يلتزم بالتحضر أمام العنف الذي يقع عليه؟

خاتمة

ختامًا، يبيّن هذا البحث أن الجسد ليس معطًى بيولوجيًا محايدًا، بل موقعًا تاريخيًا تتجسد فيه السلطة والذاكرة والعنف والمقاومة في آنٍ واحد. فالجسد يحمل آثار الإخضاع حتى في غياب ممارسته المباشرة، ويعمل كأرشيف حيّ لتجارب لا تستطيع السرديات الرسمية أو أدوات التوثيق التقليدية احتواءها. ومن خلال تتبع تحولات الجسد عبر الفلسفة والتاريخ، يتضح أن كل انتقال حضاري أو سياسي أعاد تشكيل علاقة الإنسان بذاته وبالعالم عبر إعادة تنظيم الجسد وضبطه أو استهدافه.

كما يكشف البحث أن الذاكرة الجسدية لا تقتصر على استعادة الماضي، بل تُسهم في إعادة إنتاج السلطة أو زعزعتها في الحاضر، وأن خطاب التحضر، رغم ادعائه التقدم والتهديب، قد يتحوّل إلى أداة ناعمة لتبرير العنف وتجريم الأجساد المقاومة. وفي هذا السياق، لا يظهر الجسد كضحية صامتة، بل كحقل فاعل للمناورة والمقاومة، سواء عبر الفعل الثوري أو الممارسات اليومية غير المرئية.

وعليه، تتمثل الغاية الأساسية لهذا البحث في إعادة الاعتبار للجسد بوصفه حاملًا للحقيقة التاريخية والأخلاقية، ومفتاحًا لفهم العلاقة الجدلية بين السلطة والإنسان. فالجسد هو الذاكرة التي لا تُمحي، والموقع الذي تنكشف فيه بنية العنف حين يعجز الخطاب عن قولها، وهو ما يجعل التفكير فيه ضرورة فكرية وأخلاقية لفهم التاريخ، لا مجرد موضوع نظري معزول.

1 مرجع سابق، ص 54.

المراجع | References

- فانون، فرانسوا. *معدنوب الأرض*. ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي. القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2015.
- Bourdieu, Pierre. *Outline of a Theory of Practice*. Cambridge: Cambridge University Press, 1972.
- Card, Claudia. *The Atrocity Paradigm: A Theory of Evil*. Oxford: Oxford University Press, 1996.
- Certeau, Michel de. *The Practice of Everyday Life*. Translated by Steven F. Rendall. 3rd ed. Berkeley: University of California Press, 2011.
- Connerton, Paul. *How Societies Remember*. Cambridge: Cambridge University Press, 1989.
- Elias, Norbert. *The Civilizing Process*. Oxford: Blackwell, 1994.
- Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Translated by Alan Sheridan. New York: Vintage Books, 1995.
- Foucault, Michel. *The Archaeology of Knowledge*. Translated by A. M. Sheridan Smith. New York: Pantheon Books, 1972.
- Foucault, Michel. *Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, 1972–1977*. New York: Pantheon Books, 1980.